الواقعي والمتخيّل
من خلال علائق البحث النظري والكتابي في الرواية المغربيّة

محمّد عزالدّين التازي

أمام تجربة الرواية المغربية، يصبح في عدم الإمكان، الحديث عن أعمال تضع نفسها في إطار الكتلة، توحد مسارها بعد أن وحدت المنطلق، كنتيجة لقانون الثوابت والمتغيرات في مجال الواقع الذي أفرز الكتابة الروائية، ونتيجة أيضاً لتقارب الوعي بالخصائص والمكونات النوعية للروائية كنوع أدبي، أي أن القارىء والناقد على السواء، يجدان نفسيهما أمام أزمة مفهومية تطرحها الرواية المغربية، على مستوى مفهوم الواقع الاجتماعي والسياسي كما تقدمه، وأيضاً على مستوى تصعيد هذا الواقع الواقعي إلى واقع متخيل تتحكم في تشييده مختلف القوانين والبنيات الداخلية، والأدوات التعبيرية المتعلقة بهذا الجنس الأدبي من سرد ووصف وفضاء وزمن واستخدام للذاكرة والمخيلة والحلم الخ...

هذه المسألة المفهومية، تبدو ناتجة عن استحالة الحديث عن تجارب تلتقي في رؤية مركزية من حقها أن تتعدد داخل قانون التوحد المعرفي على الأقل، بالأسس الاجتماعية والسياسية للواقع المعبر عنه من جهة، ومن جهة أخرى بالأصول الفنية والإبداعية لأدوات الرواية كنوع أدبي. إن من الممكن طرح هذا التساؤل: إذا كان مفهوم السرد مثلاً، لا يبدو متوحداً عند كل من محمد زفزاف وعبد الكريم غلاب وأحمد المديني وعبد الله العروي، فلماذا إذن يشكل كل من هؤلاء مفهومه الخاص للسرد، كأداة وتقنية في الخطاب الروائي؟ إن محاولة الجواب، وهي تنطلق من الدراسة التفصيلية للنصوص الروائية، تبقى عاجزة إذا هي اعتمدت على المستويات المضمونية التي تعبر عنها هذه النصوص، خصوصاً وأن بعضها يأخذ طابع المعاصرة والشكلية والتجاوز، ولكن هذا التجاوز، يبقى في اطاره الزمني - كمكتوب - خاضعاً لمفهوم التجاوز في اطاره الشكلي، دون أن يقدم حمولة مضمونية جديدة تحتمل أن تضع في حيازتها وعياً تجاوزياً لعناصر الواقع الاجتماعي كما قدمته نصوص أخرى سبقتها إلى الظهور زمناً. يبدو أن الدراسة التي تعتمد على التطور الزمني للرواية المغربية، في مستويات معالجتها للواقع الاجتماعي والسياسي، وأنماط الوعي التي تقدمه لهذا الواقع، والأشكال التي عبرت بها عن هذه الحمولة المضمونية، لا بد أن تكشف هذه الدراسة عن الكثير من الاشكاليات، ولعلنا نستعين بمعطيين أساسيين يحددان الظروف التي رافقت ظهور الرواية بالمغرب:

١) فترة منتصف الستينات كتحديد زماني تاريخي، وهذه الفترة تعني تصاعد الصراع السياسي بين الفئات الاجتماعية المتضررة من الاستقلال المغتصب، وبين الفئات التي ظلت تقود التوجه الرأسمالي الوطني منذ عهد الحماية، وهي التي قادت بعض فصائلها الحركة الوطنية التي قامت على أكتاف صغار الحرفيّين وعمال الأرض، وأيضاً هي التي اغتصبت الاستقلال وتولت المناصب، وأوقعت نفسها مطب الاختيار اللاشعبي عن طريق رأسملة الدولة واستمرار التبعية الاقتصادية والثقافية. إن تحالف بعض فصائل البورجوازية مع السلطة، لم يعد يكتسي طابع الصراع من أجل مسألة التوجه السياسي والايديولوجي للبلاد، ومن ثم برزت الفئات الاجتماعية المحرومة لتعبر عن غضبها وتمردها وخروجها من القمقم من جديد، كما كانت في مرحلة الاستعمار. في هذا السياق التاريخي ظهرت الرواية المغربية.

٢) انتماء معظم كتاب الرواية في المغرب إلى البرجوازية الصغيرة أو المتوسطة، وقد أثر هذا الانتماء في جعلهم ينطلقون في رؤاهم ومواقفهم المعبر عنها في عمل أدبي من منظور فكري لم

يتخلص من رواسب الماضي ليحقق الوعي المتقدم، بينما ظل ينظر إلى التاريخ كأحداث، لا كجدلية وامتداد نحو الحاضر والمستقبل، وقد استدعى ذلك أن يتبنى الروائي منظوراً تأريخياً للحركة الوطنية وارتباطها بظهور العمل النقابي يهدف الى تأريخ الوقائع من وجهة نظر معينة، أكثر مما يسعى إلى ربط حلقات الماضي برؤية للحاضر واستشراف للمستقبل، وكمثال على ذلك ما كتبه عبد الكريم غلاب وأحمد البكري السباعي. ولعل تجسيد هذا المنظور، من خلال النموذج الروائي الفردي، يشير احتمالياً إلى تصورات وانفعالات كاتبي تلك النصوص، أو الفئة الاجتماعية التي ينتمون إليها على وجه التحديد، مع أن استخدامهم للأدوات الشكلية، قد ظل استخداماً يخدم النظرية التقليدية في تنظير مفهوم هذه الأدوات، وإذا كانت رواية (جيل الظمأ) لمحمد عزيز الحبابي، قد حاولت من بين الروايات التي ظهرت في تلك الفترة، أن تحقق نوعاً من التطور في الأسلوب الروائي، فإنها قد سقطت في الرؤية العبثية للواقع، واستلهام شخوص مهما حاولت جعلها واقعية فإنها ظلت منفصلة عن أية شخوص واقعية في مغرب ما بعد الاستقلال.

هذان المعطيان السابقان، يفسران كثيراً من جوانب التعامل الفكري والإبداعي مع الأرضية التاريخية والواقعية التي انطلقت منها الرواية المغربية، هذا التعامل الذي جسد امتداده بطريقة تفجيرية على مستوى النصوص الروائية التي ظهرت لاحقاً، وبشكل نسبي يستحق كثيراً من النقد في الحمولة والأداة، إلا أننا نجد أن مرحلة الانطلاق، قد عبرت عن بؤس المنطلق من خلال:

أ- تجاهل الروآية المغربية في معظم نماذجها للقطاعات الشعبية العريضة التي ظلت ترزخ تحت الاستغلال وحملة الشعارات الزائفة، وتمرير الظرف بين القمع البوليسي والتلويح بشعار الديمقراطية، أو تناول هذه النماذج من منظور ماضوي يفرغها من محتوى النضال والتوجه المستقبلي، كما أن الوضعية السياسية التي أفرزتها تجربة الاستقلال المغتصب، والتي ترتبت عنها الظروف الاجتماعية للمواطن «التحتي» لم تترصدها الرواية المغربية في مرحلة المنطلق، من منظور ايديولوجي ثوري يتجاوز التكريس والتبرير الطبقي أو الفئوي إلى استلهام أسس التغيير الثوري المستقبلي من العناصر المشكلة للواقع المادي، وأن غياب هذا المنظور، إنما يرتبط بالوعي المرحلي للفئة التي ينتمي إليها معظم الكتاب الروائيين في المغرب.

ب- عدم تفتح الوعي الثقافي والنقدي عند هؤلاء الكتاب خلال مرحلة المنطلق، أي منتصف الستينات، على التجارب الروائية الأخرى، غربية وعربية، وأيضاً عدم تفتح هذا الوعي على التساوق الزمني الذي بدأت تنمو فيه تجربة الكتابة الروائية المغربية باللغة الفرنسية من طرف مواطنيهم في الداخل أو في المنفى الاختياري أو الاضطراري، وقد نتج عن غياب هذا الوعي الثقافي والنقدي، وعدم الاستئناس ببعض الجوانب المضيئة في تجربة الرواية العالمية- على مستوى الهموم الاجتماعية والبحث الشكلي والبنيات الفنية والمكونات التقنية للرواية- عدم مراجعة التجربة الروائية المغربية في سياق الرواية العربية والعالمية، فجاءت معظم الانتاجات هجينة الشكل تقريرية الأسلوب، أكثر الصاقاً بالسردية بمعناها القدحي، في إطار تقليدي يقلد الرديء من الأعمال ولا يطمح إلى خلق لحظة إبداعية مواكبة للواقع، عن طريق مزج الواقع بالفن، والمثال هنا عن هذا التخلف الشكلي والمضموني يأتي من (أمطار الرحمة) لعبد الرحمن المريني، و (بوتقة الحياة) لأحمد البكري السباعي، و (غداً تتبدل الأرض) لفاطمة الراوي، رغم أننا لم نتعسف اختيار هذه النصوص الروائية للإشارة إلى هذا التخلف، ولكن سبقها التاريخي هو الذي يؤهلها إلى هذا الاختيار.

من خلال هذين العاملين، يبدو أن الرواية المغربية قد زرعت نبتتها الطفيلية في أرض خلاء، وكان عليها- وهي نتاج لفئة اجتماعية متحضرة، تمجد ماضيها وتتحاور مع العالم الخارجي من منطلقاتها الذاتية والنرجسية- أن تواجه اعصارات المخاض الفكري والفني، وأن تؤسس بنياتها الواقعية والفنية على الأسس الاجتماعية والسياسية التي واكبت ظورها مع ربط هذه الأسس بالنضال اليومي الجماهيري وأبراز جوانب الصراع في الحياة الاجتماعية. ان مفهوم مواكبة الابداعات الروائية للواقع، عندما يرتبط بتحولات النص، وتحولات الواقع، قد يأتي بالنسبة لهذه الابداعات بعدياً على أساس استيعاب المرحلة وشروطها التاريخية، وهذا ما يقودنا إلى قراءة على مستوى آخر، في الروايات التي توالى ظهورها لتشكل طفرة من طفرات هذا التحول، ونعني تلك التي كتبها مبارك ربيع (الطيبون- رفقة السلاح والقمر- الريح الشتوية) وعبد الله العروي (الغربة- اليتيم) وأحمد المديني (زمن بين الولادة والحلم)، فبعد تلك التيارات المتضاربة التي عبرت عنها مرحلة الانطلاق، سواء على مستوى تبني الطروحات الفكرية، أو على مستوى المفهوم الفني للرواية، ظهرت هذه الروايات التي نعتناها بتحقيق طفرة من طفرات التحول، إلا أنها ظلت تساهم في تعميق هذا التضارب، وهذا الشتات، كما ظلت في موقف الحيرة والتردد بين الذات البورجوازية وتطلعاتها وخيباتها، وبين المعانقة لهموم الجماهير وبين موقف عزلة الذات وفرادتها ومحاولة عكس منظورها للقضايا المجتمعية. ولعل تفجير القضايا النقدية التالية، يمكن أن يشكل محوراً من محاور المراجعة الشاملة، لبعض مظاهر الرواية المغربية:

١) طرح مسألة التطور التاريخي لهذه النصوص، وهو تطور تداخلي يغير كثيراً من الإشكاليات المنهجية، إذ يتبين من خلال تواريخ صدور الروايات، أنها كانت تنطلق من عزلة عن بعضها البعض، سواء على مستوى التوفر الكمي أو على مستوى الأهمية النوعية، رغم محدودية هذه الأهمية، فقد ظهرت (سبعة أبواب) لعبد الكريم غلاب، متزامنة مع (غداً تتبدل الأرض) لفاطمة الراوي، كما تزامن ظهور (أمطار الرحمة) لعبد الرحمن المريني مع (جيل الظمأ) لمحمد عزيز الحبابي، على اختلاف كامل بين رواية

وأخرى في هذين النموذجين، كما أننا الآن لم نعد ننظر باهتمام إلى ما كتبه كل من البكري والراوي والمريني لأنهم لم يحققوا أي استمرار في مجال الرواية، إلا أنه- وبعد خمس عشرة سنة من التجربة الروائية في المغرب- يلاحظ استمرار تصاعد التوفر الكمي في اطار يكاد يكون بعيداً عن أخذ مسألة التجاوز بالاعتبار، وخارج أي تطور هرمي يمكن أن يجسد التحول الكلي، فرغم صدور روايات متميزة إلى حد - وتبقى متميزة على المدى الزمني للتجربة الروائية المغربية- فقد ظهرت إلى جانبها روايات أخرى ظلت تنطلق من الفقر الفني والجهل المعرفي بأدوات الفن الروائي حتى في بعدها التقليدي.

٢) التعبير عن مفهوم التجاوز، من خلال نصوص روائية قليلة، أخذت على نفسها تشييد واجهة مضادة لإبداعات روائية أخرى سابقة، عن طريق تحقيق بعض عناصر البحث الشكلي، في إطار من تفجير اللغة، والتفرد بمنظور خاص لمؤسسات الواقع الروائي وأدواته الوصفية والسردية والحوارية، ونستطيع هنا أن نذكر أن الروايات التي دشنت هذا المنعطف، هي التي كتبها عبد الله العروي (الغربة- اليتيم) وأحمد المديني (زمن بين الولادة والحلم)، وهي التي حاولت أن ترصص تعاملاً جديداً مع اللغة، ومع الفضاء الروائي، ربما كان ينطلق من تحقيق نوع من التجاوز لأسلوب السرد التقليدي في روايات عبد الكريم غلاب مثلاً (سبعة أبواب- المعلم علي- دفنا الماضي)، إنه صراع بين النصوص، يمكن أن يجسد صراعاً آخر بين ما هو تقليدي، وبين ما هو طلائعي يريد لنفسه أن يتبنى مقولات الحداثة في مجال الرواية، وهي ظاهرة غير بريئة ما دامت قابلة للتأويل الايديولوجي.

٣) مفهوم الواقع، كما تطرحه الرواية المغربية، يجعلنا نعيد النظر في مسألة الوعي بالمكونات التاريخية والاجتماعية والايديولوجية لهذا الواقع عند كتاب الرواية في المغرب، ذلك أن حضور الذات ببعدها الأحادي، قد جعل منظور هذا الواقع يأخذ طابع السيرة الذاتية، ليس بالمعنى المصطلحي للسيرة الذاتية، وإنما كتعبير عن نموذج حياتي محوري يتمركز حول الذاتي، ليصبح هذا الذاتي انفرادياً وهامشياً أحياناً، وأحياناً أخرى نمطاً لطرائق التفكير والممارسة عند فئة اجتماعية أو مجموعة من الفئات تعودت النظر إلى مركزيات الصراع الاجتماعي والسياسي نظرة تجاهل واستعلاء ما دامت تعتبر أن همومها الذاتية والخاصة في بعض الأحيان، يَنْبَغِي أن تكون مركز العالم وقطبه المحيط. حضور هذه النماذج المُتَفَرِّدَةِ كشخصيات روائية، وهي تستلهم الأحداث من واقعها الاجتماعي الخاص، يؤدي بنا إلى تحليل العلائق الواقعية بين الذات وموضوعها من جهة، ومن جهة أخرى بين الذات في إطارها الاجتماعي والذهني الضيق، وبين أن تكون في حالة جدلية مع عناصر وجودها الواقعية والتاريخية، وأيضاً في حالة تفاعل مع ذوات أخرى قد تكون أشدَّ اختلافاً من حيث نمط الحياة اليومية وأوجه المعاناة وحدة الاستغلال والقمع الفكري والنفسي الممارسين عليها. عندما تصبح هذه الذات المعزولة عن تحاورها مع ذوات أخرى مغايرة، نموذجاً روائياً سائداً في الرواية المغربية، وأيضاً عندما تتجاهل معظم الروايات تبني نماذج قاعدية، وأحداثاً ذات دلالة مركزية بالنسبة للصراع الاجتماعي والسياسي، فإن مفهومية الواقع الذي تتحدث عنه هذه الرواية، تبقى منطلقاً لكثير من الأحكام التي ليست في صالحها، سواء على مستوى هامشية هذا الواقع، أو على مستوى عدم محاولة تعميقه فنياً.

٤) استخدام المخيلة في مجال الرواية المغربية، يطرح علينا مراجعة التصور النظري الذي يمكن أن يحدد الخصائص الوظيفية للمخيلة في المجال الإبداعي بصورة عامة والرواية بصورة خاصة، إذ أننا لا نستطيع الحديث عن نص إبداعي لا يعتمد على المخيلة في توليد الأحداث ونقل المواقف وهو دور انعكاسي بالأساس، إلا أن المستوى الثاني وهو الأهم، ينطلق من تجاوز الوظيفة الميكانيكية للمخيلة، إلى الوظيفة الابتكارية التي تستطيع أن تشيد واقعاً جديداً هو الواقع الروائي، أي الواقع الفني الذي يعيد صياغة الواقع اليومي عن طريق تفجيره وتصعيده والسيطرة عليه من كافة الجوانب التي تحددها رؤيا الكاتب. وإن ما تؤكده تجربة الرواية المغربية، هو اعتمادها على المستوى الأول في معظم النصوص الروائية، بينما تبقى نصوص قليلة هي التي تتعامل مع المخيلة خارج الدور الانعكاسي، وفي اطار من خلق اشعاع اللّحظة وتناسخها وتعدد مستوياتها الإبداعية. إن المتخيل هنا لا يمكن فصله عن الواقعي، إلا أن حدود الاستخدام والفاعلية، هي التي تجعلنا نمتلك أدوات التمييز بين رواية وصفية تصِفُ لنا واقعاً عينياً قد يشكل جزءاً من واقع الكاتب الخاص، أو الذاتي، وبين رواية تنسج فضاءها من تلاحم المتخيل والواقعي، لتؤسس واقعاً جديداً هو واقع إبداعي، قد يختلف عن الواقع الواقعي في أنه مشحون برؤية فردية أو جماعية خاضعة لقوانين الزمان والمكان الروائيين. وبإمكاننا أن نمثل للمستوى الأول برواية (سبعة أبواب) لعبد الكريم غلاب، وللمستوى الثاني بكل من (الغربة) و (اليتيم) لعبد الله العروي، على أن نموذجاً روائياً يمثل حالة الشذوذ بالنسبة لهذين المستويين، هو (زمن بين الولادة والحلم) لأحمد المديني، كما أننا نستطيع أن ننظر إلى أعمال محمد زفزاف الروائية (المرأة والوردة- قبور في الماء- الأفعى والبحر)، على أنها أكثر التصاقاً بذلك الواقع الخاص، الذي تؤسسه الذات من التجربة والمشاهدة، ومن الصعب هنا أن نحدد أي ذات، أهي ذات الكاتب، أم الذوات الأخرى المتحركة على مدى المساحة الروائية.

إن ارتباط الكتابة الروائية بالواقع، طرح قابل لكثير من الاحتمالات، لأن السؤال المنهجي الذي يفرض نفسه هنا، هو: أي واقع؟ واقع من؟ ومن أي منظور؟ إن الكتابة اللاواقعية، أي التي تجرد العناصر المادية وتعيد تركيبها عن طريق المخيلة، تدعونا إلى التساؤل عن المبررات التي ترتب عنها أن تجعل هذه الكتابة

من الواقع، أهو رد فعل عنيف تجاه الوصفية السطحية والواقعية البئيسة، يسعى إلى تشييد أخيلة وفضاءات جديدة، وإلى خلق لحظة تصادمية عن طريق اثبات رؤيا الكاتب وأحلامه وتوظيف ذاكرته الزمنية؟ أم أنه تأسيس للذات، يرتكز على مرتكزاتها الأساسية، حتى وإن تحقق ذلك من انغلاقها على الواقعي والمجتمعي؟

إننا عندما نتحدث عن المضمون الواقعي في الرواية المغربية، نحتاج إلى كثير من الدقة في تحديد جوانب المعالجة الحدثية ذات البعد الواقعي، والتي تجسد كثيراً من جوانب الاختلاف بين رواية وأخرى حول مفهوم هذا الواقع، إذ يلتصق في بعض النماذج بالرؤية الانعكاسية التي تتحول فيها الأدوات الروائية إلى وسائط مباشرة تعمل على نقل واقع قد يكون يومياً من زاوية هامشية إذا نظرنا إلى فاعلية هذا الواقع في المجال التاريخي القائم على أساس الصراع بين الفئة المتسلطة على التوجيه السياسي والاقتصادي والفئات التي تسعى إلى تحقيق وجودها اليومي عن طريق قيم التغيير الثوري إذ أن طابع المذكرات، وسيطرة الحالات الذاتية الخصوصية، وانغلاقية النص الروائي على فضاءات بورجوازية لا تعمد إلى الفضح والتعرية، وتوجيه الرؤية الفكرية والايديولوجية للنص الروائي توجيهاً يعكس ايديولوجية الكاتب أحياناً، كلها عناصر ساعدت على بلورة مجموعة من الشواهد على نوعيات من التعامل مع الواقع اليومي، تعاملاً قد لا يخدم الأفق الحقيقي لقراءة هذا الواقع واستشرافه وتثوير أدواته النصية، عندما يتحول من مادة يومية إلى عمل روائي؛ هذه الملاحظة، تبدو قابلة للتعميم على مجموع المكتوب الروائي في المغرب، وإن كانت بعض الأعمال الروائية، تنفرد ببعض التوجه الجزئي من خلال بعض اللوحات أو المقاطع، نحو نقل الخاص إلى العام، والفردي الى المجتمعي، بمعنى اكساب الهوية الاجتماعية والسياسية لهذا المتفرد النمطي، مع قلة هذه الأعمال الروائية.

لقد كتب مبارك ربيع رواية عن مشاركة التجريدة المغربية في حرب الجولان، (رفقة السلاح والقمر)، ودُونَ أن نتدخل في نية الكاتب، أي الخوض في موضوع سياسي وعسكري يزعم لنفسه التوجه العربي (نالت جائزة المجمع اللغوي بالقاهرة، وأي الروايات المغربية تنال الجوائز!)، فهل يكفي أن يستطيع الكاتب الروائي النظر إلى علائق الواقع المادي من الخارج، ليدخل في عملية انتقائية تحدد مسبقاً اطار ومجال البحث الروائي ضمن حقل من التجارب، وهل تستطيع هذه العملية الإرادية المسبوقة بالتخطيط النظري المجرد على ذاتية المبدع، أن تظل صامدة أمام ممارسة الكتابة وتفتيق جوانبها الإبداعية والشّعْرية؟ ما يحدد الجواب هنا هو قناعة الكاتب، وقدرته على استثمار طاقات المخيلة، من أجل صياغة الموضوع صياغة إبداعية تستفيد من المعطيات النظرية، وتتجاوز الملف الوثائقي للأحداث، إلى اكتشاف قوة الحلم والتفجير، ولعل (رفقة السلاح والقمر)، لم تحقق شيئاً من هذا المستوى، على أن مبارك ربيع، في رواية أخرى، هي (الريح الشتوية)، قد استطاع - وهو ينطلق من صراع نموذج إنساني مغربي (عباس الحمدوني) في مواجهة انتزاع الأرض من طرف المعمر الأجنبي، ثم في مواجهة الاستغلال الرأسمالي في المدينة عندما أصبح عاملاً في مصنع للسكر - استطاع أن يرصد اندحار فئات الفلاحين في البوادي وانسياقها نحو المدن لتواجه مصيرها الغامض، ثم انخراط هذه الفئات في النضال والمقاومة، كما استطاع أن يجذر هذا النموذج في الواقع المغربي خلال الفترة الاستعمارية تجذيراً يعتمد على تأزماته النفسية وصراعه الداخلي والخارجي الذي هو جزء من صراع المجتمع.

إن مجموع الروايات المغربية التي ظهرت لحد الآن، يطرح علينا أشكالية اختلاف أنساق ومستويات التعبير، وأنماط الوعي الاجتماعي والسياسي، على أننا لا نستطيع القول بفراغ أي نص إبداعي من محتواه الإيديولوجي، إلا أن عملية احصائية تتعلق بمجموع الروايات المغربية التي ظهرت لحد الآن (حوالى ثلاثين رواية)، يمكن أن تؤكد على أن الوعي الذي تقدمه هذه الروايات، إنما يسجل حالة غياب عن مركزيات الصراع الاجتماعي، وخصوصاً منها تلك التي جنحت إلى نموذج الخيال العلمي (الطوفان الأزرق - أحمد عبد السلام البقالي)، أو الطابع الفلسفي المجرد (جيل الظمأ - اكسير الحياة - وهذه الأخيرة رواية عن الدنيا والآخرة كما يقدمها كاتبها محمد عزيز الحبابي) بل وقبل هذه الروايات زمنياً، (أمطار الرحمة)، التي أغرقت نفسها في دموع الحب الرومانسي، رغم أن كاتبها عبد الرحمن المريني يهديها «إلى الطبقة الصامدة صمود الجبال التي تسعى إلى نشر الوعي الذي سيؤدي حتماً إلى نزول أمطار الرحمة»، وبالرغم مما في هذا الاهداء من اضطراب فكري وعدم تحديد للوعي والطبقة، فإن الكاتب نفسه قد نبه إلى «أن لا علاقة للرواية بالإهداء»، وبعد صفحة واحدة، وبإمكاننا أن نضيف مثالاً آخر من رواية فاطمة الراوي (غداً تتبدل الأرض)، والتي لا تعطينا أي تبرير على المستوى المنطقي والواقعي لتحول تلميذة من الوعي البورجوازي إلى الوعي النضالي وتبني مواقف الطبقة العاملة، مما أدى إلى انشطار الرواية الى نصفين متناقضين، وكأن نصفها الأول، هو أوراق حقيقية لتلميذة صغيرة، ونصفها الثاني جسم غريب تحققت كتابته للجائزة التي نالتها الرواية من الاتحاد المغربي للشغل، وليس بدافع الوعي بالكتابة كمسؤولية. والأمثلة الأساسية لاختلاف أنماط الوعي والتعبير، في الراوية المغربية، لا تأتي من روايات هامشية كهذه، وإنما هي التي تقدمها روايات أخرى أساسية كالتي كتبها عبد الكريم غلاب ومبارك ربيع وعبد الله العروي ومحمد زفزاف وأحمد المديني وغيرهم، وهذا ما يحتاج إلى دراسة تفصيلية. على أن النموذج الذي كتبه أحمد المديني (زمن بين الولادة والحلم)، قد انطلق من مسألة القطيعة مع النماذج الروائية التي كتبت سابقاً، وتتحقق هذه القطيعة في حيازة مؤسسات

جديدة للنص الروائي، منها هوس اللغة، واللاشخصية، وتعويض السرد والحوار باعتباطية التقاط الأحداث الجزئية وصوغها في انسياب مجنون لا ينقطع.

إن الكتابة الجديدة، عندما تؤسس وجودها على الفراغ، فهي بذلك إنما تعدم طاقتها في البحث والاستمرار، وتسقط في سديم الفضاءات التي يرصصها الكاتب، لتظل منسلخة عن علاقات تركيبها ونواظمها الداخلية، وأيضاً عن ارتباطها بالمجتمع والتاريخ. إن في ذلك نسفاً للقانون الأساسي لبناء الرواية، خصوصاً عندما يلجأ الكاتب إلى تجريد الواقع إلى فكر خالص، غير قابل للتشخيص المادي مع نسبية هذا التشخيص وتدخل عنصر الخيال في ذلك. لا نستطيع أيضاً، أن ننظر إلى الكتابة الروائية على أنها عمل ساذج يكتفي بحدود النقل الانعكاسي والوصف وسرد الواقعي أو المتخيل في حدود وظيفية المخيلة، لأن الرواية لم تعد مرآة تجوب الشوارع، ولقد عبرت الرواية المغربية لحد الآن عن هاجس الكتابة، ولم تنخرط في الوعي بالكتابة، أي البحث الذي يصوغ علائقه النظرية والكتابية من القناعات المتوحدة، ايديولوجيا وفنياً، إذ أن الأشكالية تكمن في علائق هذا البحث، ومواكبة الكاتب لمراحله المعقدة.

محمد عز الدين التازي

دار الآداب تقدم

غائب طعمة فرمان

في روايته الجديدة

ظلال على النافذة

« ظلال على النافذة » هي الرواية الخامسة لهذا الروائي العربي العراقي ينحو فيها منحى يختلف بشكله الفني عن رواياته السابقة • انها رواية بثلاث طبقات مشحونة بلحظات التوتر لاختيار الموقف ، حتى ولو كان يمر عبر المعاناة والعذاب والتضحية • والصدق مع النفس يبدو ، أحيانا ، الشاهد الوحيد على هذه التضحية • و « الضمير » الذي يبدو ، في روايات غائب كلها ، البطل الحقيقي والخفي ، يسيطر هنا على الرواية بكل ما فيها من آلام • انه صنو الصدق مع النفس ، انه التاريخ الحي للانسان •• انه الذاكرة التي لا تمحى !

ان « ظلال على النافذة » رواية تشدك اليها ، لأنها مكتوبة بصدق واقعي وفني عميق • انها شهادة أخرى من شهادات غائب طعمة فرمان •

صدرت حديثا